المادة: السيرة النبوية
المحاضرة: غزوات الرسول ρ
المرحلة: الأولى
الأستاذ المساعد الدكتور رضاب حاتم ياسين

BIOGRAPHY OF THE PROPHET
PROPHET'S (PBUH) FIGHTS
THE FIRST STAGE
ASSISTANT PROFESSOR DR. REDHAB HATEM YASSIN

غزوة العشيرة:

خرج رسول الله ρ من المدينة بعد عودته من الغزوة السابقة بقليل. وكانت قوة المسلمين مؤلفة من مائة وخمسين رجلا من أصحاب الرسول ρ، ويقال مائتين، وقد اتجهت إلى العشيرة وهي ناحية بين مكة والمدينة، من أجل التعرض لقافلة قريش كانت قد خرجت من مكة متجهة إلى الشام، إلا أن قوة المسلمين لم تستطع اللحاق بها، لأنها كانت قد غادرت العشيرة قبل وصول المسلمين إليها بأيام، وقد أشير غلى أن هذه القافلة هي نفس القافلة التي خرج المسلمون لمصادرتها عند عودتها من الشام، والتي أدى خروج قريش لحمايتها إلى معركة بدر. لقد استثمر الرسول ρ هذه الغزوة منزل العشيرة من بطن ينبع فأقام لعدة أيام وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة.

غزوة سفوان «بدر الأولى»:

لم يكد الرسول ρ يستقر في المدينة إلا ليالي قلائل لا تبلغ العشر بعد عودته من غزوة العشيرة، حتى تعرضت المدينة لغارة قام بها كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة من الإبل والمواشي، فخرج رسول الله ρ على رأس قوة من المسلمين لملاحقته، حتى بلغ واديا يقال له سفوان من ناحية بدر، إلا أنه لم يدركه، فرجع إلى المدينة، إن هذه الحادثة تؤكد مدى حاجة المسلمين غلى القوة للدفاع عن أنفسهم وحماية أموالهم وأراضيهم في بيئة تقوم العلاقات العامة بها على احترام القوة.

سرية عبد الله بن جحش «سرية نخلة»:

في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة بعث رسول الله ρ سرية مؤلفة من ثمانية أشخاص بقيادة عبد الله بن جحش إلى موضع يدعى نخلة يقع بين مكة والطائف، ولم يشأ الرسول ρ أن يكشف الجهة التي ستذهب إليها السرية حتى لأفرادها وقائدهم، إذ زودهم بكتاب مختوم يحدد وجهتهم ويطلب منهم عدم فتحه إلا بعد أن يبتعدوا عن المدينة مسافة يومين.

إن إحاطة الرسول ρ أهداف هذه السرية بمثل هذا الكتمان الشديد ربما كان مرجعه رغبته الشديدة في حماية حياة أفراد السرية من المخاطر التي قد تصيبهم إذا عرف الخبر، وبخاصة أنهم سيتجهون إلى منطقة قريبة من مكة، ويقطنها مشركون يرتبطون بقريش بروابط وثيقة، لذا فقد طلب الرسول ρ من قائد السرية أن لا يستكره أحدا من أفرادها على المضي معه بعد إعلامهم بالموضع الذي سيتجهون إليه، وقد قام قائد السرية بإحاطة أصحابه بأوامر الرسول ρ بقوله: قد أمرني رسول الله ρ أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشا، حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ρ، فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف عنه منهم أحد. وحين

وصلت السرية إلى نخلة، مرت بهم قافلة تجارية لقريش كانت قادمة من الطائف تحمل معها زبيبا وأدما –أي جلودا– وكان برفقتها أربعة رجال ثلاثة منهم من بني مخزوم والرابع حضرمي يدعى عمرو بن الحضرمي، فلما رأى أفراد السرية قافلة قريش تحركت في أعماقهم روح الثأر والقتال، إلا أنهم ترددوا لأنهم كانوا في آخر يوم من رجب، وهو من الأشهر الحرم عند العرب التي لا يجوز فيها قتال، فتشاوروا فيما بينهم فيما يجب عليهم فقله، فقال بعضهم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن منكم به ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم. فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ρ المدينة.

لم يستقبل الرسول ρ ما فعله أفراد هذه السرية بالرضى، لأنهم لم ينفذوا أوامره على نحو صحيح. وقد استغلت قريش هذه المناسبة لإثارة عموم العرب على المسلمين، لأنهم خرجوا على أحد أهم تقاليدهم، فقالت: استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال. ولم يجد المسلمون في البداية ما يسوغون فعل أفراد السرية، سوى القول بأن ما حصل كان بعد انقضاء الشهر الحرام أي في الأول من شعبان. ويبدو أن صدى دعاية قريش كان كبيرا في المدينة نفسها، وأخذ اليهود يتفاءلون بقرب نشوب الحرب الانتقامية التي ستشنها قريش ضد المسلمين.

وفي هذه الأجواء العصيبة التي كان يعيشها المسلمون، نزل القرآن الكريم على الرسول ρ بقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا}.

وكانت هذه الغنيمة أول غنيمة غنمها المسلمون. وعمرو بن الحضرمي أول من قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون. أما السرايا السابقة فقد اقتصرت على التهديد وممارسة الضغط على قوافل قريش التجارية ولم يحصل فيها قتال أو سفك للدماء وحصول على غنائم، إن سرية نخلة كانت فاتحة مرحلة الصراع المسلح بين دولة المدينة ومكة.

معركة بدر:

واصل الرسول ρ سياسته القائمة على ممارسة الضغط على حرية قبيلة قريش في إرسال قوافلها التجارية إلى بلاد الشام من خلال محاولة التعرض لها والاستيلاء عليها، لذا فإنه بقي يترقب موعد عودة قافلة قريش التي كانت ذاهبة إلى الشام حينما خرج في غزوة العشيرة للتعرض لها.

ويبدو أن حرص الرسول ρ على مهاجمة هذه القافلة التي يقودها أبو سفيان نابع من أنها كانت من أكبر قوافل قريش التجارية، فكانت تضم ألف بعير، وكانت فيها أموال عظام، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له

مثال فصاعدا إلا بعث به في العير، حتى إن المرأة لتبعث بالشيء التافه، فكان يقال: إن فيها لخمسي ألف دينار.

إن نجاح المسلمين في الاستيلاء على هذه القافلة كان من شأنه أن يلحق ضربة قوية بقريش ويعوض المهاجرين عن أموالهم التي صادرتها ويساعد على تحسين أوضاعهم الاقتصادية بصورة واضحة، لذا فما كانت الأخبار تصل إلى الرسول ρ بأن القافلة قد توجهت من بلاد الشام في طريق عودتها إلى مكة حتى سارع إلى حث المسلمين للخروج لمهاجمتها، هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها. فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم. وقد أشارت المصادر غلى أن العامل الذي جعل بعض الصحابة يتثاقلون عن تلبية نداء الرسول ρ أنهم لم يظنوا أن الرسول ρ يلقى حربا.

وكان عدد الذين لبوا نداء الرسول ρ للخروج من المهاجرين والأنصار كبيرا إذا قيس بعدد الذين ساهموا في السرايا والغزوات السابقة، إذ بلغ عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا، من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلا، ومن الأوس واحد وستون رجلا، ومن الخزرج مائة وثمانون رجلا.

ويبدو أن حرص الرسول ρ على وحدة جيشه وعدم وجود مترددين بينهم وبخاصة إلى تطور الموقف من مجرد الاستيلاء على القافلة إلى الحرب، جعله يرفض السماح بمشاركة غير المسلمين في هذه الحملة، فقد رد الرسول ρ رجلين من مشركي المدينة خرجا معه من أجل الغنيمة، قائلا لهم: لا يخرجن معنا رجل ليس على ديننا.

وكان يوم خروج الرسول ρ في هذه الغزوة يوم الاثنين لثمان ليال من شهر رمضان، وكان قد مر على هجرته إلى المدينة تسعة عشر شهرا، فسلك طريقه من المدينة إلى مكة يريد بدرا، وهو موضع ماء كانت تعقد عنده بعض المواسم التجارية، ويبعد عن المدينة بحوالي مائة وستين كيلو مترا.

ويبدو أن المسلمين توقعوا أن يلقوا قافلة أبي سفيان عند بدر، غير أن أبا سفيان كان شديد الحذر، إذ كان يتوقع خروج المسلمين للتعرض لقافلته، ومن ثم فقد أخذ يستطلع أخبارهم حتى إذا تأكد من الخطر الذي يحيق بالقافلة، سارع إلى تغيير طريق سيره باتجاه الساحل، وبذلك فوّت على المسلمين فرصة الاستيلاء على القافلة، ثم قام بإرسال شخص من قبيلة غفار إلى مكة ليستنفر قريشا لنجدة أموالهم.

وحين بلغت قريش أخبار تعرض قافلتها للخطر هبت لنجدتها، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك. فكانوا بين رجلين، إما خارج وإما باعث مكانه رجلا. وأوعبت قريش، فلم يتخلف من أشرافها أحد. غير أن حماس بعض زعماء قريش للقتال فتر حينما وصلتهم رسالة من أبي سفيان تخبرهم بأن القافلة قد نجت، ولم يعد ثمة حاجة لنجدتهم، في الوقت الذي أصر فيه آخرون على القتال، وكان أشدهم حماسا أبو جهل بن هشام الذي قال: والله لا نرجع حتى نرد بدرا– وكان بدر موسما من مواسم

العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام- فنقيم عليه ثلاثا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها.

وهكذا فقد دب الانقسام في صفوف جيش المشركين فانسحب من بينهم بنو زهرة وبنو عدي وساهم بنو هاشم وهم مكرهون. ومع ذلك فقد بلغ عدد أفراد جيش المشركين الذين توجوا لقتال المسلمين حوالي تسعمائة وخمسين رجلا، أي ثلاثة أضعاف عدد أفراد جيش المسلمين.

حين بلغت أخبار تحرك جيش المشركين لمقاتلة المسلمين إلى الرسول ρ وجد أنه لم يعد أمامه من خيار سوى الصمود والاستعداد لخوض المعركة الفاصلة مع مشركي مكة، ومع ذلك فقد جمع الناس الذين معه لاستشارتهم فيما يفعل لمواجهة الموقف، فتحدث أبو بكر وعمر والمقداد بن عمرو فأبدوا حماستهم لمقاتلة المشركين، غير أن الرسول ρ كان ينظر إلى الأنصار ويقول: أشيروا علي أيها الناس. وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ρ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ρ، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال أجل، قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد.

إن موقف الأنصار كان مبعثا لرضى الرسول ρ وسعادته، لذا فقد أخذ يعد الخطط ويستعد لخوض المعركة ضد مشركي مكة، وكتب الله لهم النصر في هذه المعركة.

لقد كانت معركة بدر من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام، وقد ترتب على انتصار المسلمين فيها نتائج متنوعة سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي أو التشريعي، لذا فإن فهم التطورات التي أعقبت هذه المعركة تتطلب دراسة النتائج التي نشأت عنها بصورة دقيقة.

لقد كانت مسألة الغنائم التي حصل عليها المسلمون في معركة بدر من أولى المسائل التي أثارت بعض الخلاف وتطلبت المسارعة لحلها ووضع القواعد المنظمة لها بصورة دائمة، وقد أشارت المصادر إلى أن حجم هذه الغنائم كان كبيرا، وأن اقتسامها بين المقاتلين قد أثار بعض الخلافات والمنازعات، وقد كان من جملة ما غنمه المسلمون في بدر مائة وخمسين بعيرا، وعشرة خيول، وأسلحة العدو، فضلا عن جلود كثيرة، وقطيفة حمراء، حملوها معهم للمتاجرة.

وكانت المسألة الثانية التي ترتبت على انتصار المسلمين في معركة بدر هي مسألة الأسرى، فقد أسر المسلمون في هذه المعركة سبعين أسيرا، وهو عدد كبير إذا قيس بنسبة عدد مقاتلي المسلمين والمشركين.

وذكرت المصادر أن الرسول ρ حين استشار المسلمين فيما يفعل بالأسرى، اختلفوا في ذلك إلى رأيين، فذهب أصحاب الرأي الأول وكان بينهم عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ إلى قتلهم، لأنهم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة، يوطئ الله Y بهم الإسلام ويذل بهم أهل الشرك. أما الرأي الثاني فقد عبر عنه أبو بكر الصديق τ بقوله للرسول ρ: قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم، وأبعدهم منك قريب، فامنن عليهم من الله عليك، أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين، فلعل الله يقبل بقلوبهم إليك.

لقد كان رأي أبي بكر الصديق τ أقرب إلى عقل الرسول ρ وقلبه بما عرف عنه من ميل إلى العفو والسماحة، فقرر الأخذ به، فأمر بحجز الأسرى، ريثما تتم مفاداتهم أو إطلاق سراح غير القادرين على فداء أنفسهم منهم، وقد أوصى الرسول ρ أصحابه بحسن معاملة الأسرى، فقال: استوصوا بالأسرى خيرا.

ولم يحاول الرسول ρ التشدد في شروط فداء الأسرى، ومطالبة كل أسير بوضع مبلغ محدد من المال على الرغم من حاجة المسلمين الماسة إليه في ذلك الوقت. وقد أسر رسول الله ρ يوم بدر سبعين أسيرا. وكان يفادي بهم على قدر أموالهم. وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون. فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم. فإذا حذقوا فهو فداؤه. وكان من جملة غلمان المدينة الذين تعلموا الكتابة على يد الأسرى زيد بن ثابت.

المصادر:

السيرة النبوية: ابن هشام: الجزء الثاني

السيرة النبوية: ابن كثير: الجزء الثاني

الروض الأنف: السهيلي: الجزء الثاني

الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة: هاشم يحيى الملاح